الفصل الرابع عشر

نعم! ذلك المهندس الشاب الذي أغواها ودفعها دفعًا إلى ذلك الفضاء العريض الذي صرعت فيه. لقد منحها الحياة، ولقد قضى عليها بالموت. وهل ذاقت البائسة من لذة الحياة ونعيمها إلا هذه الثمرات الحلوة المرة التي جنتها في هذه الدار القائمة من دارنا غير بعيد؟! إلى هذه الدار دُفِعَت حين هَبَطَت من أقصى الريف، فأخذت تعرف الحضارة وتألفها وتبلو من طيباتها ما رقق لها العيش وقد كان غليظًا، وحبب إليها الدهر وقد كان بغيضًا.

فيها عرفت الترف واطمأنت إلى النعيم! ولم تكد تنشأ وتنمو حتى مدَّ لها الحب ذراعين فيهما النعيم والبؤس، وفيهما الرحمة والعذاب، فأسرعت إلى ما كان يتراءى لها من ذلك جاهلةً له، مفتونة به، متهالكةً عليه، ثم انصرفت كارهةً عما بلت، وما أدري ماذا كان يحزنها ويمزق فؤادها تمزيقًا حين كانت تقص عليَّ أنباءها وتحدثني بأحاديثها! أهو الندم على ما قدمت من ذنب واقترفت من خطيئة، أم هو الأسف على ما فارقت من لذة وحُرمت من نعيم؟ وما أدري ما الذي كان يملأ قلبها فرقًا ورعبًا حين كانت تتراءى لها تلك الأشباح الحمراء! أهو الموت الذي كانت ترى نذيره منكرًا بشعًا ومسمعه صارخًا ملحًّا، أم هو اليأس الذي كان يقطع الأسباب بينها وبين هذا المهندس الشاب، ويلقي بينها وبين الحب ولذاته وآلامه حوائل وموانع لا سبيل إلى أن تُجتاز؟

نعم! هذا المهندس الشاب! لقد ارتسم شخصه في نفسي ارتسامًا قويًّا ملحًّا ليس إلى محوه من سبيل. ولقد كنت أرى أختي فإذا هو ملازم لها كأنه الظل، بل كأنه ظل من هذه الظلال الحمراء التي كانت تلازمها حين كنت أراها أثناء العلة وحين كانت تعرض لي في الطريق! بل لقد تفرقت عن أختي كل هذه الظلال وانمحت انمحاء، ولم يبق معها إلا هذا الظل الذي لا أكاد أراه حتى تضطرب نفسي اضطرابًا عنيفًا، وحتى يثور في قلبي